# الشيشان في قضاء الحويجة

# دراسة انثروبولوجية

**د. عبد الله صالح علي خلف**

**جامعة تكريت - كلية الآداب**

**مقدمة:**

**يتكون المجتمع العراقي من اثنيات واقليات وطوائف مختلفة، إذ تشكل هذه الجماعات ثقافات فرعية وانساقاً فرعية في البناء الاجتماعي العام للمجتمع. وبالرغم من التغيرات التي شهدها المجتمع العراقي ولا سيما في بنائه السياسي، فقد بقيت تلك الجماعات محافظة ـ ولو بشكل نسبي ـ على نظمها الاجتماعية وانماطها الثقافية.**

**فدراسة الجماعات الاثنية تعد من المواضيع التي استهوت الباحثين والمختصين في مجال الانثروبولوجيا وعلم الاجتماع، ولاسيما ان الكشف عن تلك الجماعات ـ المغلقة نسبياً ـ ومعرفة خصائصها الاجتماعية يمكن أن يوضح الكثير من الأمور والملابسات لتلك الجماعة وغيرها من الجماعات.**

**إن دراسة مثل هذه الجماعة بطريقة انثروبولوجية تمكننا من الكشف عن نظمها وطبيعة بنائها الاجتماعي وانماطها الثقافية وتحديد أصولها الاجتماعية من اجل بَلورة رؤية مستقبلية للعلاقة بين تلك الجماعة والمجتمع المحلي الذي تعيش فيه.**

**وتعد الشيشان واحدة من الجماعات الاثنية التي جاءت من اواسط روسيا الى العراق واستقرت في عدد من مدن العراق بما فيها قضاء الحويجة/ناحية العباسي، مكونة لها قرية محلية صغيرة تسمى بـ(قرية الچاچان).**

**تتكون الدراسة من مقدمة وثلاثة محاور، اشتمل المحور الاول على إطار منهجي يضم عناصر الدراسة كالمشكلة والاهمية والهدف والمنهجية، فضلاً عن تحديد بعض المفاهيم العلمية التي تدور حولها الدراسة، كالاثنية والجماعة الاجتماعية، فضلاً عن اعطاء نبذة تاريخية عن الجماعات الشيشانية في العراق، ويتضمن المحور الثاني الدراسة الانثروبولوجية التي تناولت في ثناياها البناء الاجتماعي لجماعة الشيشان في قضاء الحويجة (قرية الچاچان)، متجسدة في النسق الاجتماعي والنسق الاقتصادي لتلك الجماعة، واقتصر المحور الثالث على خاتمة للدراسة خلصت فيها الى مجموعة من الاستنتاجات والتوصيات العلمية.**

**اولاً: الاطار المنهجي للدراسة**

**١. مشكلة الدراسة**

**تبرز مشكلة الدراسة في حقيقة الكشف عن الواقع الاجتماعي للجماعات الاثنية . أي الشيشان . ذات الثقافة الفرعية وطبيعة بنائها الاجتماعي وانماطها الثقافية من خلال العلاقة المتفاعلة بينها وبين المجتمع المحلي الذي تعيش فيه، لذا فان هذه الدراسة تحاول تسليط الضوء على طبيعة البناء الاجتماعي لتلك الجماعة من اجل استشراف مستقبل التغيرات الاجتماعية والثقافية التي تقود تلك الجماعة الى حالة من التفاعل الايجابي، وتعزيز الانتماء الوطني من خلال بناء نسق قيمي جديد يقوم على التواصل الاجتماعي بين اطياف المجتمع.**

**٢. اهمية الدراسة**

**تتضح اهمية الدراسة في الكشف عن واقع تلك الجماعة من اجل صياغة معرفة نظرية عن جماعة اثنية . شبه مغلقة . هاجرت من بلادها الاصلية واستقرت في مجتمع ريفي . محلي، مكونة لها انساقاً قيمية جديدة تكون بمثابة عناصر تماسك اكثر من كونها عناصر اختلاف، وهذا يتفق مع الهدف العام الذي تسعى اليه الانثروبولوجيا وعلم الاجتماع، لتقديم معرفة نظرية عن المجتمع العراقي بوصفه مجتمعاً متنوعاً اثنياً ومتجانساً ثقافياً.**

**٣. هدف الدراسة**

**تسعى هذه الدراسة الى تقديم رؤية انثروبولوجية من خلال التعرف على ماهية هذه الجماعة ونظمها الاجتماعية وثقافتها وعلاقة افرادها فيما بينهم ومع المجتمع المحلي الذي يعيشون فيه.**

**٤. منهجية الدراسة**

**اعتمدت الدراسة في منهجيتها على المنهج البنائي . الوظيفي كمنهج اساسي، فضلاً عن الاستعانة بالمنهج الوصفي في وصف مظاهر الحياة الاجتماعية لتلك الجماعة، وكذلك المنهج التاريخي، ليمكننا من الرجوع الى تاريخ القرية وسجلاتها، وسبر أغوار تلك الجماعة، دون الدخول وبعمق الى دهاليز التاريخ القديم لتلك الجماعة.**

**وقد استعان الباحث بأدوات البحث الانثروبولوجي في جمع المعلومات الميدانية، كالملاحظة، والمقابلة، فضلاً عن الاستعانة وبشكل كبير بالمخبرين من أهالي القرية او المناطق المجاورة لها لصلتهم الوثيقة بالقرية وتعاملهم مع ابناء تلك الجماعة اقتصادياً واجتماعياً.**

**ثانياً: تحديد المفاهيم العلمية**

**١. الاثنية : Ethnicity**

**تعرف الاثنية بانها جماعة عنصرية تعيش في مجتمع تسيطر عليه جماعات عنصرية اخرى اكبر منها حجماً، فهي مجموعة من الافراد تنتمي الى عنصر بشري واحد، تعيش منعزلة وحدها او مع جماعات اخرى، فاذا كانت تعيش مختلطة بجماعة عنصرية اكبر منها حجماً، وتخضع لسيطرتها سميت اقلية عنصرية Racial Minority [١].**

**وتتمثل الملامح الاساسية لهذا المفهوم في تحديد وتسمية اي تجمع او فئة من الناس، والتناقضات الصريحة والضمنية بين الجماعة المقصودة واي جماعة او فئة اخرى وجود ثنائية (نحن / هم)، لتطبيق هذا المفهوم، وغالباً ما تكون ثنائية (نحن / هم) مفروضة او مفضلة في نظام اجتماعي معين او دولة قومية معينة، ذات ايديولوجية ديناميكية مركزية لدمج هذه الجماعات او الفئات في «البوتقة الاجتماعية»[٢] .**

**فالأثنية جماعة سلالية Ethnic group تعتنق ثقافة تقليدية مشتركة وشعوراً بالذات وتعد جماعة فرعية من المجتمع العام. ويختلف اعضاء الجماعة السلالية عن باقي اعضاء المجتمع فيما يتعلق ببعض الخواص الثقافية، وقد يكون لأفراد هذه الجماعة لغتهم الخاصة وديانتهم، فضلاً عن بعض العادات المميزة لهم وشعورهم بالتوحد كجماعة تقليدية متميزة[٣].**

**ويعني مفهوم الاثنية الممارسات الثقافية وما تعتنقه الجماعة من قيم ومفاهيم ومبادئ لتميز نفسها من الجماعات الاخرى، ومن ابرز السمات المميزة للجماعة الاثنية، اللغة، والدين، والتاريخ المشترك، والزي[٤]. وقد استعمل العالم «وليم جراهام سمنر» مصطلح العرقية «التمركز حول العرق» Ethnocentrism ليعني فيه طرق التفكير والشعور عند الجماعات، واعتقاد الفرد الجازم بسمو ورفعة جماعته التي يعدها اساس كل الجماعات الموجودة في المجتمع[٥].**

**وفي التداول العلمي الانثروبولوجي الشائع تدل عبارة «اثنية» على جماعات ذات خصائص لغوية وثقافية وجغرافية ذات حجم معقول، وغالباً ما يرد ذكرها باستمرار لكونها تسند الى وحدة اساس الدراسات الانثروبولوجية، فهي . اي الاثنية . قبل كل شيء فئة انتساب يتعلق استمرارها بالحفاظ على حدود مرسومة على مستوى التنظيم الاجتماعي لمختلف الثقافات بين الجماعات المتجاورة. وليس من الضرورة ان تكون الجماعات الاثنية ذات اصول رسية مغايرة وفدت من خارج البلد، دون اساس ارضي مشترك، فيمكن ان نجد في البلد نفسه اقليات من الاصل نفسه الذي ينتمي اليه ابناء المجتمع، مثل جماعات «الغجر» التي تستمر منذ وجـــــــودها بإعادة تشكيل**

لامتناهية لثقافتها وتنظيمها الاجتماعي[٦]. وتتضمن دراسة الاثنيات في الانثروبولوجيا الحديثة فهم تطور واسس التسميات والمقابلات التي تطلق على جماعات وفئات من الناس.

**٢. الجماعة الإجتماعية : Social group**

مجموعة من الافراد يقوم بينهم نمط من التفاعل السيكولوجي، ويعتمد كل منهم على الجماعة في تحقيق اهداف محددة او مقابلة احتياجات معينة، ويكون للجماعة وحدتها الذاتية التي يسلم بها اعضاؤها وكذلك الآخر[٧].

وتستخدم كلمة «الجماعة» لوصف شبكة قائمة من العلاقات الاجتماعية تدل على ارتباط مثل القرابة، والتراث الثقافي، والقيم والاهداف المشتركة[٨]. وللفهم الاكثر لمفهوم الجماعة يمكن التمييز بين نوعين من الجماعات الاجتماعية، «الجماعة العضوية، والجماعة المرجعية » فالجماعة العضوية هي الجماعة التي ينتمي اليها الفرد، في حين تؤثر الجماعة المرجعية في سلوكه واخلاقياته تأثيراً كبيراً، وهناك ارتباط وثيق بين الجماعات العضوية والجماعات المرجعية، فالجماعات العضوية قد تكون هي الجماعات المرجعية بالنسبة للفرد ما دامت انها تؤثر في سلوكه اليومي وتعطيه طابعاً معيناً، وقد يستعمل مفهوم الجماعة المرجعية بكثرة عند الاشارة الى تكوين المواقف، التكيف الاجتماعي، الانتقال الاجتماعي[٩].

وعلى حد تعبير «ميردوك **Murdock**» يشير مفهوم الجماعة الاجتماعية الى الجماعة التي يشارك فيها الفرد وتكون مركزاً مستقلاً للحياة والمصالح والسلوك البشري، وتتميز الجماعة الاجتماعية بشعور اعضاؤها بالأمن الداخلي، والقانون، والنظام، والجهد التعاوني[١٠].

و تعرف الجماعة بانها اثنان او اكثر من الناس متفاعلان بينهما سيكولوجياً، يحس بوجودهما بواسطة الاعضاء من خلال شكل ونوع السلوك الجمعي. ويشير «لوسر» لكي توجد الجماعة، لابد من توفر الخصائص والسمات الآتية[١١]:-

| | |
|---|---|
| ١. تفاعل ديناميكي بين اعضائها | **Dynamic interaction** |
| ٢. هدف مشترك | **Common goal** |
| ٣. العلاقة بين الحجم والوظيفة | **Size and function** |
| ٤. اختيار وقبول | **Volition and consent** |

٥. القدرة على التوجيه الذاتي Self-direction

ويضيف «لوسر» أن اعضاء الجماعة يتشابهون في الحاجات والاهتمامات، ويحكم تفاعلهم المستمر معايير وقيم المجتمع ويجمعهم مكان واحد.

الشيشان في العراق . نبذة تأريخية

عقب عمليات التهجير القسرية التي تعرضت لها شعوب بلاد شمال القفقاس (جنوب روسيا)، وبضمنها الهجرة الكبرى التي امتدت للمدة من ١٨٥٩ م لغاية ١٨٦٤ م الى تركيا، ومن ثم الى البلاد الواسعة التي كانت تحت سيطرة العثمانيين، كانت حصة العراق كبيرة من أعداد الاسر الشيشانية والداغستانية والشركسية التي استوطنت بصورة رئيسة في مدن وريف كركوك و ديالى وبغداد والموصل والأنبار(الفلوجة)، الى جانب الاسر التي قدمت طوعاً من شمال وجنوب داغستان الى العراق عبر أذربيجان وإيران قبل التهجير القسري وبعده بمدد غير قصيرة، واستقرت شمال العراق في دهوك وأربيل والسليمانية.

كانت الغالبية العظمى من المهاجرين القادمين قسراً الى العراق تتكون من اسر القادة العسكريين أو المقاتلين الذين انضموا الى الجيش العثماني بدواعي دينية، ومن ثم فضّلوا البقاء في العراق، ولم يغادروه حتى بعد سقوط الدولة العثمانية، وعلى امتداد سنوات القرن الماضي ونتيجة الافتقار الى مرجعية عشائرية مركزية تتولى رعاية شؤون الشيشان والداغستان والشركس في العراق تعذر القيام بتنظيم العمليات الإحصائية الدقيقة الخاصة بتحديد ومسح الأعداد الفعلية للشيشان في العراق ومواقع سكناهم، لأسباب عديدة لامجال الآن للخوض فيها، لذا فقد كان من الصعوبة تنظيم عملية إحصائية دقيقة عن واقع حال تلك الاسر، إلاّ أن رغبة نخبة من رجالها وإيمانهم بضرورة إيجاد وسيلة تنظيمية تتولى لمّ الشمل ومعرفة التفاصيل الخاصة بها حيوياً وعلمياً وإجتماعياً وثقافياً والعمل على النهوض بها دفعهم ذلك عام ٢٠٠٤ نحو تأسيس (جمعية التضامن الخيرية لجماعات الشيشان في العراق) واختير مركزها العام في محافظة كركوك نظراً للكثافة السكانية العالية لأبناء هذه الاسر فيها ولكونها تتوسط المدن والمناطق التي تسكنها الاسر الشيشانية [١٢].

**ايكولوجيا القرية:**

**تقع قرية الشيشان أو ما تسمى بـ(الچاچان) وفقاً للتسمية المحلية، في ناحية العباسي / قضاء الحويجة محافظة كركوك، جنوب نهر الزاب الصغير شرق نهر دجلة على مسافة تبعد عشرة كيلومترات عن نقطة التقاء نهر الزاب الصغير بنهر دجلة.**

**تأسست القرية عام ١٩٣٦م على يد المرحوم إبراهيم بك دولت، وقد قدمت اليها الاسر الشيشانية من المدن والمحافظات المحيطة بها، والچاچان قرية حديثة ومنظمة نسبياً مقارنة بالقرى المحيطة بها، ذات بيوت قليلة مكعبة الشكل تقع على جانبي طريق واسع، يعيش سكانها عيشة شبه مدنية منظمة وفق تقاليدهم وعاداتهم الاجتماعية.**

**يبلغ عدد الاسر المكونة للقرية نحو (٣٠) اسرة، تحوي بداخلها ما يقارب (٣٥٠) نسمة من السكان.**

**البناء الاجتماعي للقرية . الدراسة الانثروبولوجية:**

**ان مفهوم البناء الاجتماعي اخذ يفرض نفسه بشكل واضح على معظم الدراسات الحديثة، بعد ان كان مجرد فكرة غامضة تراود عقول بعض الكتاب في القرن الثامن عشر. إن شيوع استخدام هذا المفهوم انما يرجع في المحل الاول الى بعض التغيرات التي طرأت على اهتمامات ونزعات واساليب دراسة المجتمع(١٣).**

**فهل ستنصب دراسة البناء الاجتماعي على ثقافة مجتمع الدراسة؟ ام انها ستركز على دراسة النظم والعلاقات الاجتماعية؟ ان التداخل بين الاثنين كبير جداً، والتمييز الذي يحدده ايفانز بريجارد بين دراسة الثقافة والنظم الاجتماعية غير واضح المعالم في دراسة الجماعات الاثنية المتمثلة بـ(الشيشان) في مجتمع ريفي محلي (١٤).**

**ان ثقافة جماعات الشيشان في قضاء الحويجة هي ثقافة فرعية (sub-culture) من الثقافة الريفية العراقية، وكذلك انساق البناء الاجتماعي لتلك الجماعات، فإنه يتشابه بشكل يكاد يكون متطابقاً مع المجتمع المحيط به.**

**ولا يعني هذا انه ليس هناك خصوصية في البناء الاجتماعي لتلك الجماعة، اذ ان الجماعة هي اقلية اجتماعية (social minority)، ومن ثم فإن انعكاس ذلك على البناء الاجتماعي امر لا مناص منه، وكذلك انعكاسه على ثقافة الجماعة بمحيطها ، فهو امر لا يكاد يخفى على احد .**

ومن الواضح انه لا بد من وجود درجة معينة من الاطراد والاتساق في الحياة الاجتماعية وتوفر نوع ما من التنسيق في المجتمع، والا استحال على اعضائه العيش معاً. فالناس لا يستطيعون في الواقع الانصراف الى شؤونهم، إلا لأنهم يعرفون نوع السلوك الذي يتوقعه الاخرون منهم، وكذلك نوع التصرفات التي يتوقعونها هم انفسهم من الاخرين في مختلف مواقف الحياة الاجتماعية، كما انهم ينظمون نشاطهم تبعا لقواعد مرسومة، وبحسب قيم متعارف عليها. فهم يستطيعون التنبؤ والتكهن بالأحداث، وبذلك يمكنهم ترتيب حياتهم بما يتفق ويتماشى مع حياة الاخرين. ولكل مجتمع نسق او بناء يعيش فيه افراده وينزلون عند مستلزماته، واستخدام كلمة (بناء) بهذا المعنى يتضمن وجود نوع من التماسك والتوافق بين اجزائه، الى الحد الذي يمكن معه تجنب التناقض او الصراع المكشوف، وانه يتمتع بدرجة من الديمومة والبقاء اكبر مما تحظى به معظم الاشياء العابرة السريعة في الحياة الانسانية.[١٥]

ان جماعات الشيشان في قضاء الحويجة عاشت ضمن وحدة قرابية صغيرة هي (الفخذ او الحمولة او البطن)، والوحدة القرابية لدى الجماعات الشيشانية تختلف اختلافاً بنيوياً– وظيفياً عن العشيرة الريفية العراقية المجاورة لها في عدة وجوه ؛ أولها قلة امتلاك تلك الجماعات اراضي او مكان خاص بها، فالجماعات الشيشانية كانت وما تزال مبعثرة في اكثر من مكان من مدن وارياف المجتمع العراقي مثل ديالى، والانبار، وبغداد، وكركوك، ودهوك، وأربيل، والسليمانية.

ان النقطة الجوهرية في البناء الاجتماعي للجماعات الشيشانية هي أنها جماعات تسكن المدن او القصبات فهي تتواجد على الاغلب في مراكز الاقضية والنواحي، ولذا تعد الجماعات الشيشانية في اغلب مدن العراق جماعات (شبه حضرية)، وحتى من سكن منهم في القرى البعيدة فهم ما يزالون يتصفون بكثير من خصائص المجتمع الحضري العراقي.

فالشيشانيون في مجتمع قضاء الحويجة هم اقلية اجتماعية صغيرة، وقد اضطرتهم الظروف الى العيش في وسط مجتمع عشائري، الوحدة السياسية والاجتماعية فيه هي العشيرة، ومن ثم اضطرهم هذا الى اتباع نظام اجتماعي تكافلي معروف في الوسط العشائري، يعني الدخول في حمى عشيرة مقابل الاتفاق مع شيخ وابناء العشيرة على جميع الاعراف والتقاليد السائدة في ذلك المجتمع.

وهذا النظام يوجب على العشيرة المحتضنة ان تدافع عن الجماعة الشيشانية، وتمنع الاعتداء عليها وعلى اموال افرادها من خطر ابناء العشائر الاخرى، وعلى وفق هذا العرف يصبح الفرد الشيشاني كأنه منتمٍ الى تلك العشيرة العربية، في دفع الدية (الفصل)، او بناء مضيف او أي تكافل اجتماعي آخر.

وعلى الرغم من دخول الشيشانيين في حلف مع عشيرة او فخذ او حمولة قوية، انهم لا يلجؤون اليها في حل جميع مشاكلهم ، بل يسعون الى اللجوء الى القوانين الرسمية المتمثلة بالمحكمة، ومديرية الناحية او مركز الشرطة للشكوى والمطالبة بحقوقهم. وهذا شبه اختلاف بين الجماعة الشيشانية وما يحيط بها من عشائر عربية، لان الوسط العشائري في مجتمع قضاء الحويجة ما يزال . وبشكل نسبي . يعد الشكوى للحكومة ( طريق الضعيف) ، والرجل الحقيقي هو الذي يأخذ حقه بيده. وربما يكون السبب وراء سلوك الشيشانيين ذاك، هو ان الشيشانيين في قضاء الحويجة . وكما اشرنا آنفاً . هم جماعات ذات خلفيات شبه حضرية، يؤمنون بسلطة القانون، والثاني أنهم اقلية صغيرة، فحتى لو لجأوا الى حلفائهم لأخذ حقوقهم فلن يأمنوا من انتقام الطرف الاخر، في حين لا يستطيع احد الانتقام من الحكومة.

وباختصار يمكن الاحاطة بأهم انساق البناء الاجتماعي لتلك القرية مقتصرين على النسق الاجتماعي والنسق الاقتصادي.

## النسق الاجتماعي:

### اولا: القرابة:

ان النسق القرابي لجماعة الشيشان مشابه او يكاد يكون مطابقاً للنسق القرابي في عشائر مجتمع قضاء الحويجة، فالقرابة مبنية على اساس خط النسب الابوي (Patrilineal Kinship).

ينتمي الفرد الشيشاني الى وحدة قرابية أصغر من العشيرة كـ(الفخذ او الحمولة اوالبطن)، ولكن هذا الانتماء مختلف عن الانتماء العشائري السائد لدى عشائر المجتمع الريفي العراقي، لان الوحدة القرابية الشيشانية فاقدة لبعض من وظائف العشيرة في الحياة القبلية، فهي ليست وحدة دفاعية او قتالية، لأنها لا تملك هذه القدرة، ومن ثم تصبح الوحدة القرابية الشيشانية وظيفياً اقرب الى الاسر الحضرية، اذ تؤدي وظائف التكافل الاجتماعي والتواصل والمساعدة في اوقات الفرح والحزن. ورغم الاشارة الى المناطق المتفرقة لتواجد هذه الجماعات، ان ذلك لا يمنع من تواجد خليط قرابي في المناطق ذات التواجد الشيشاني، فقد وجد هذا النمط من السكنى حتى يكون الفرد قريبا من الاخوة او ابناء العمومة .

وعلى الرغم من أن نسق القرابة لدى جماعة الشيشان يتبع خط النسب الابوي، ان اقارب الام ولاسيما الاخوال لهم مكانة جيدة ايضا، وذلك يعود لنمط الزواج الداخلي، وعلى هذا الاساس فغالباً ما يكون الاخوال هم ابناء عمومة، وكذلك يعود لصغر حجم الجماعة الشيشانية، فإن هناك تداخلاً

كبيراً بين علاقات المصاهرة والقرابة. واننا لا نرى في الجماعة الشيشانية ظاهرة اعطاء نساء او اخذ نساء كعقوبات على جرائم (فصلية)، لانهم نادراً ما يتعرضون لمثل هذه المشاكل، وفي حالات حصول مشاكل كبيرة مثل القتل نراهم يلجؤون الى سلطة القانون واجهزة الدولة التي تنفذ هذا القانون .

ثانيا : الاسرة:

ان نمط الاسرة الشيشانية التقليدي مشابه لنمط الاسرة العراقية بشكل عام. فهي اسرة ابويه (Patrilineal Family)، يمثل الاب فيها السلطة المركزية، ثم يأتي دور الذكور من الاولاد ثم بعد ذلك الام والبنات، وهذه السيادة الذكورية في الاسرة تعزى لأسباب اجتماعية واقتصادية، بالرغم من المكانة المتميزة للمرأة لدى تلك الجماعات، ولكن واقع الحال يشير الى تأثر الشيشانيين بالبيئة الاجتماعية المحيطة بهم، ومع ذلك فالمرأة الشيشانية في المجتمعات التقليدية كانت اقل معاناة من جاراتاها الريفيات في مجتمع قضاء الحويجة، لان جاراتها كُنَّ وما يَزِلنَ يعملنَ في الزراعة والرعي بالإضافة الى مسؤوليات المنزل، ومع ذلك فمكانتها الاجتماعية واطئة نسبياً، في حين تكاد المرأة الشيشانية تكون متفرغة لإدارة اعمال المنزل .

ومثلها مثل حال الاسرة العراقية، تأثرت الاسرة الشيشانية بالتغيرات الاجتماعية والثقافية والسياسية التي حدثت في المجتمع نتيجة شيوع النمط الحديث من الحياة، ونتيجة لانتشار التعليم، فضلاً عن تجليات ظاهرة العولمة وانعكاساتها الثقافية على المجتمع من خلال زيادة وسائل الاتصال من صحف ومجلات وتلفزيون فضائي(ستلايت) واجهزة الهواتف النقالة (الموبايل) وشبكات (الانترنت) وغيرها، كل ذلك جعل الاسرة الشيشانية اسرة عصرية نسبياً، ولكن على الرغم من ازدياد الحرية في علاقات الابناء بالآباء مثلاً، إن نمط العلاقة الاسرية مازال قائماً.

وعلى الرغم من وجود حالات تعدد الزوجات لدى ابناء الجماعة الشيشانية اليوم، إنها لا تمثل حالة شائعة، وان خصوبة الاسر الشيشانية –أي عدد الابناء فيها– على الرغم من انخفاضها عما سبق بسبب متطلبات الحياة العصرية، ان الاسرة الشيشانية ما تزال تعد ذات خصوبة عالية. اذ تنجب المرأة الشيشانية (٤) اطفال أو اكثر، وهذه الخصوبة جزء من حالة ( الدفاع عن الوجود ) لدى الاقليات، في محاولة منها لمقاومة الاندثار.

ان الاسرة الشيشانية مثل أي اسرة عراقية تراوح بين التقليد والحداثة، فقد تغيرت مكانة المرأة في هذه الاسرة واصبح لها دور فعال فيها. الا ان مقياس الشرف مازال مقياساً بايولوجياً، اذ يتعلق

شرف وسمعة الاسرة كلها رجالها ونسائها بعذرية ابنتهم، فالبنت التي تفقد عذريتها قبل الزواج تعرض سمعتها وسمعة اسرتها الى تهديد حقيقي .

ان نمط الأسرة الشيشانية أخذ بالتحول من الأسرة الممتدة (Extended Family) الى نمط الأسرة النووية (Nuclear Family)، وذلك ضمن سياقات التغير من التقليدية الى المعاصرة. فقد كانت الأسرة الشيشانية التقليدية الممتدة تتكون من الاب وزوجاته وابنائه المتزوجين متحدين في وحدة اجتماعية واقتصادية، يرأسها الاب وفي بعض الحالات –عند وفاة الاب– الاخ الاكبر، اما اليوم فنجد ان الأسرة الشيشانية مكونة من الزوج والزوجة والاولاد. وعلى الرغم من الظروف الاقتصادية السيئة التي مر بها البلد خلال مدة الحصار الاقتصادي دفعت ببعض الابناء الى الزواج والاستقرار مع اسرته الاصلية، إن الزوجين الشابين يعدان ذلك حالة مؤقتة ريثما تتوفر لهم فرصة مناسبة للاستقلال بسكن منفصل .

ثالثا : الزواج:

يحتل موضوع الزواج والاسرة مركزاً رئيساً في الدراسات الاجتماعية ولاسيما الانثروبولوجيا التي تهتم في المحل الاول بدراسة المجتمعات التقليدية. وربما كان السبب الرئيس وراء هذا الاهتمام هو ذلك الدور الذي تلعبه علاقات وروابط الاسرة والقرابة في حياتنا اليومية، اضف الى ذلك، طرافة الموضوع نفسه وعلى الاخص ما يتعلق بعادات الزواج المختلفة واشكال الاسرة في مختلف المجتمعات، مما يجعل موضوع الزواج والاسرة والقرابة من اكثر موضوعات علم الاجتماع والانثروبولوجيا جذباً ولفتاً لانتباه العلماء واهتمامهم.

إن اول سمة من سمات نسق الزواج الشيشاني هي كونه ( زواجاً داخلياً ) (Indogamy). فهو اولاً يجب ان يكون محصورا داخل الجماعة، إذ يعد الزواج الداخلي هو المفضل في المرحلة التقليدية، عندما كان ابناء الطائفة يسكنون مدن الجنوب. ولكون الجماعات الشيشانية جماعات مسلمة فالمحرمات والمحارم (Incest) لديهم ما اشار اليها الدين الاسلامي، اذ تحدد المحرمات بالام وام الام والاخت وذريتها وابنة الاخ وذريتها والعمة والخالة او الجمع بين الاختين، ويسمح بزواج الرجل من اخت الزوجة بعد وفاتها بالرغم من انها حالة نادرة.

النسق الاقتصادي:

تتفاعل الانساق (systems) المكونة للبناء الاجتماعي ( Social structure) فيما بينها لتكون الصورة النهائية لذلك البناء . وقد يكون احد الانساق اكثر تأثيراً او اكثر وضوحاً في

التفاعل تبعاً لمجموعة من الظروف، فالنسق الايكولوجي يكون اكثر تأثيراً في البيئات قليلة التكنولوجيا، في حين يقل تأثيره كلما تطور المجتمع تكنولوجياً. والنسق القرابي مهم جداً في المجتمعات القروية والبدوية. لان القبيلة او العشيرة او البدنة تمثل الوحدة الاساسية التي يعيش الافراد في كنفها، في حين يقل تأثير النسق القرابي في مجتمعات المدن نظراً لطبيعة العلاقات الاجتماعية في المدينة، تلك العلاقات المبنية على اساس العلاقات الرسمية.

وفي حقل الدراسة الانثروبولوجية لجماعة الشيشان، نستطيع ان نؤشر نسقين اساسيين كان لهم أثر جوهري في بلورة شكل البناء الاجتماعي لهذا المجتمع، وهذان النسقان هما: النسق القرابي، لأنه يمثل الاساس في تشكيل الجماعة المدروسة، ومن ثم النسق الاقتصادي، وهو ما سنناقشه في هذا المبحث.

ويشير النسق الاقتصادي في أبسط معانيه الى توفير السلع المادية اللازمة لإشباع الحاجات البايولوجية والاجتماعية. وهذه امور عامة تشترك فيها جميع المجتمعات ومن مختلف المستويات الثقافية، كما ان تحقيقها يتطلب توفير درجة معينة من التعاون المنهجي المنظم من أفراد المجتمع لاستغلال موارد الطبيعة، وذلك باستخدام بعض الاساليب والوسائل الفنية والآلات والادوات التي تكفل تحقيق نتائج اقتصادية معينة، سواء اكانت هذه النتائج هي جمع الثمار او صيد الحيوانات او زراعة الحبوب او الصناعة اليدوية او الآلية، ثم يأتي بعد ذلك توزيع السلع المنتجة [١٦].

فكل العمليات الاقتصادية التي تتم داخل نطاق معين تتطلب بالضرورة قيام درجة معينة من التعاون والاعتماد المتبادل بين أفراد ذلك المجتمع، وذلك بحسب نمط معين من الحقوق والالتزامات[١٧].

وكما اشرنا سابقاً فان الشيشانيين لم يمثلوا مجتمعاً معزولاً خاصاً بهم، وانما كانوا جزءاً من مجتمع كبير يعيشون فيه ويتفاعلون معه، ومن ثم فإن النسق الاقتصادي لبنائهم الاجتماعي قد مثّل جزءاً من النسق الاجتماعي لمجتمع قرى قضاء الحويجة في المرحلة التقليدية، ثم جزءاً من النسق الاقتصادي في المدن العراقية الكبرى.

فالمجتمعات المحلية مجتمعات ذات مستوى تكنولوجي واطئ وذات اقتصاديات في اولى خطوات تحولها من اقتصاد الاكتفاء الذاتي الى اقتصاد السوق المرتبط بالأسواق العالمية بالنسبة للمحاصيل الرئيسة مثل الحبوب والقطن والذرة الصفراء. وان التحولات الاجتماعية المبنية على اسس اقتصادية لم تكن واضحة المعالم بعد، اذ نرى ان المجتمع يراوح بين قيمه القبلية البدوية

التي تمثل جذراً للقبائل الساكنة في قضاء الحويجة، وبين التحول نحو مجتمع حداثي يتعامل وفق منطق السوق.

ان مصدر الحياة الاساسي كان الزراعة التي مرت في هذه المرحلة بتحولات خطيرة غيّرتها من زراعة قبلية همها الاكتفاء الذاتي الى زراعة تمول السوق المحلي والعالمي بمحاصيل استراتيجية مثل الحنطة والشعير والقطن والذرة. وقد كان ذلك مصاحباً للتغير في البناء الاجتماعي والثقافي للسكان القبليين، اذ تغير نمط العلاقة بين الفلاح والارض من جهة، وبين الفلاح وشيخه القبلي من الجهة الاخرى. فقد كانت الارض قبل ذلك مشاعاً او( ديرة) للعشيرة يزرعها ابناؤها للاكتفاء من محاصيلها، ولكن ايجاد نظام التملك العقاري (الطابو) او الايجارات طويلة المدى(اللزمة) –الذي احتُكر تقريباً من قبل شيوخ العشائر– جعل نمط العلاقة بين الشيخ وافراد عشيرته يتغير الى نمط اقطاعي فيه جانب كبير من الاستغلال، وتعامل يقترب من القنانة.

اما ما يخص المحاصيل الزراعية التي كانت وما زالت تنتج في هذه المنطقة، فتتلخص اهمها في ؛(الحنطة، الشعير، الذرة الصفراء، بالإضافة الى الخضراوات)، وقد كانت هذه المحاصيل تكفي لسد حاجة السوق المحلي . وبالتأكيد كانت الزراعة تتم بوسائل بدائية في عمليات حرث التربة وتنعيمها وبذر البذور وسقيها وحصاد المحصول وتهيئته. ومن المعروف ان منطقة قضاء الحويجة ذات ماء كثير، والارض الزراعية الخصبة، مما جعل لقطاع الزراعة وتربية الحيوانات الدور الكبير الذي تعتمد عليهما الجماعة الشيشانية مصدراً اساسياً للعيش، وبما ان جماعة الشيشان لا تمتلك اراضي كافية للزراعة، وهذا ما تمت اليه الاشارة آنفاً، فالفلاح الذي لا يملك ارضاً كان يزرع لغيره مقابل ربح يتفق عليه مع صاحب الارض، وقد عمد الكثير من الفلاحين الكبار الى شراء الاراضي والبيوت والسيارات والى مزاولة المهن الحرفية، وشغل اعمال حرة كشراء السيارات والاعمال التجارية المختلفة، فضلاً عن مزاولة المهن الوظيفية، إذ يعمل العديد من ابناء الجماعة الشيشانية موظفين في دوائر الدولة واجهزتها الامنية ومؤسساتها الخدمية.

**خاتمة الدراسة**

خلصت الدراسة الى عدد من الاستنتاجات والتوصيات العلمية منها:–

**١. الاستنتاجات:**

١. للبيئة الطبيعية اثر كبير في زيادة النشاط الزراعي، واهمية القرية من حيث الموقع الجغرافي المتميز، إذ تقع القرية وسط اراضٍ زراعية خصبة، مما انعكس هذا بدوره على الحياة الاجتماعية

لسكان القرية من خلال زيادة النشاطات الاقتصادية والزراعية، فالنشاط الاقتصادي الرئيس لأبناء الجماعة الشيشانية في قضاء الحويجة هو الزراعة، فضلاً عن مزاولة ابناء الجماعة لبعض الحرف والمهن التقليدية بما يتلائم مع متطلبات الحياة العصرية، بالإضافة الى اشتغالهم في المؤسسات والدوائر الحكومية والشركات والمعامل الاهلية والتي ضمنت لهم مورداً ثابتا.

٢. تتميز القرية بخصائص شبه حضرية، إذ جمعت نمطين هما النمط الحضري شبه المتمدن والنمط الريفي التقليدي، ويمكن ملاحظة هذا التنوع في جميع النشاطات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية.

٣. ان القرابة لدى جماعة الشيشان مبنية على اساس خط النسب الأبوي، أي ان نسق القرابة فيها يقوم على روابط الدم في خط الذكور، لذا فان روابط الدم في الجماعة تشمل جميع الاقارب العاصبين الذين يمكن للفرد ان يرجع قرابته اليهم.

٣. اصبحت الاسرة الاولية او النووية هي النمط السائد لدى ابناء الجماعة نتيجة لشيوع النمط الحديث من الحياة وانتشار التعليم ووسائل الاتصال وغيرها مما جعل الاسرة الشيشانية اسرة شبه عصرية.

٤. النشاط الاقتصادي الرئيس لأبناء الجماعة الشيشانية في منطقة الدراسة هو الزراعة لاسيما زراعة الحبوب والخضر والفواكه والتي مرت بتحولات عديدة غيرتها من زراعة تقليدية همها الاكتفاء الذاتي الى زراعة تمول السوق المحلي بمحاصيل اساسية مثل الحنطة والشعير والخضر والفواكه المتنوعة.

٥. مزاولة ابناء الجماعة لبعض الحرف والمهن التقليدية واجادتها والتفنن في استخدامها وتطويرها بما يتلائم مع متطلبات الحياة العصرية، فضلا عن اشتغالهم في المؤسسات والدوائر الحكومية والشركات والمعامل الاهلية والتي ضمنت لهم موردا ثابتا.

**٢. التوصيات:**

١. ان التنوع العرقي والديني والطائفي الموجود في العراق ، يتطلب القيام بالعديد من الدراسات الاكاديمية الجادة، وذلك لإشاعة روح التسامح وفهم الاخر وتقوية اواصر العلاقات بين مفردات الطيف العراقي، هذه التقوية لابد ان تكون قائمة بالأساس على بحوث موضوعية علمية خالية من روح التعصب والتحيز ومحاولات التهميش التي اصابت الكثير من مكونات الفسيفساء العراقي على مدى العقود المنصرمة.

**٢. ضرورة انشاء مركز بحوث ودراسات متخصص بشؤون الاقليات في المجتمع العراقي من اجل تعزيز التواصل الفكري بينهم وبين ابناء المجتمع ضمن الوحدة الوطنية.**

**الهوامش**

**(١) شاكر مصطفى سليم، قاموس الانثروبولوجيا، ط١، إصدار جامعة الكويت، ١٩٨١، ص٨٠٠.**

**(٢) أحمد زكي بدوي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٨، ص١٤٠.**

**(٣) انتوني غدنز، علم الاجتماع، ترجمة د. فايز الصياغ، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٥، ص٣١٢.**

**(٤) [٤] ميشيل دنكن«تحرير»، معجم علم الاجتماع، ترجمة د. إحسان محمد الحسن، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٠، ص١٢٩.**

**(٥) بيار بونت، ميشال ايزار، معجم الاثنولوجيا والانثروبولوجيا، ترجمة مصباح الصمد، ط١، مؤسسة مجد الجامعيةللدراسات والنشر والتوزيع، بيروت،٢٠٠٦، ص٣٩.**

**(٦) بيار بونت، ميشال ايزار، معجم الاثنولوجيا والانثروبولوجيا، المصدر السابق، ص٤٣.**

**(٧) أحمد زكي بدوي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، مصدر سابق، ص١٨٣.**

**(٨) طوني بينيت وآخرون، مفاتيح اصطلاحية جديدة: معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع، ترجمة سعيد الغانمي، ط١،توزيع مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠١٠، ص٢٤٥.**

**(٩) ميشيل دنكن«تحرير»، معجم علم الاجتماع، مصدر سابق، ص٢٤٩.**

**(١٠) ايكه هولتكرانس، قاموس مصطلحات الاثنولوجيا والفولكلور، ترجمة د. محمد الجوهري وآخر، دار المعارف بمصر، ١٩٧٢، ص١٧٢.**

**(١١) د. غريب عبد السميع غريب، علم الاجتماع ـ مفهومات ـ موضوعات ـ دراسات، مؤسسة شباب الجامعة،الاسكندرية، ٢٠٠٩، ص٤٣.**

(١٢) المصدر: معلومات حصل عليها الباحث من جمعية التضامن الخيرية لجماعات الشيشان في العراق، سجلات (غير منشورة)، كركوك، ٢٠١٣.

(١٣) [١] احمد ابو زيد، البناء الاجتماعي مدخل لدراسة المجتمع، الجزء الاول المفهومات الطبعة الخامسة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٦ القاهرة، ص١٠.

(١٤) [١] ايفانز بريجارد، الانثروبولوجيا الاجتماعية، ترجمة د. احمد ابو زيد، منشأة المعارف، الاسكندرية ١٩٦٠، ص٤٠.

(١٥) [١] ايفانز بريتشارد، الانثروبولوجيا الاحتماعية، مصدر سابق ، ص٤٢.

(١٦) [١] احمد ابو زيد، البناء الاجتماعي، الجزء الثاني (الانساق)، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر الاسكندرية، ١٩٦٧،ص٩٢.

(17) [1]Dalton. G. Economic Theory and primitive Society, American Anthropologist, LXIII, 1961, P.[6].


## Abstract

**Ethnic groups' study is one of the subjects that attract the attention of sociology and anthropology researcher, especially for the fact that the discovery of those relatively closed groups, and knowing their sociological features may make clear much of ambiguities and secrets of those and other groups.**

**Studying any of those groups anthropologically may enable us to discover its traditions, social structure and cultural patterns, as well as to determine its social origins in order to make a vision for the future relationship of this group and the local community it lives within.**

**Chechnya community is one of the ethnic groups came to Iraq from middle Russia and settled in different cities including Al-Hawija District/ Al-Abbasi township. They made for themselves a small local village named (Chi Chan village).**

**The study consists of three parts, the first an introductory one consists of the problem, the importance, aim, method and some technical concepts of the study such as ethnic, social group, as well as historical survey on Chechnya groups in Iraq. The second is an anthropological study including the social structure of Chechnya community in Al-Hawija District (Chi Chan village), represented in social and economic systems of this community. Finally, the third part is a conclusion which comes at number of results and recommendations.**